كتب الزهد منهل التصوف الإسلامي - دراسة عن عبدالله بن المبارك

الدكتور سيد باقر الحسيني
عضو هيأة التدريس بجامعة زابل - إيران
drhosseinisistani@gmail.com

Ascetic Books The Origin of Islamic Sufism –A Study of Abdullah Ibn Al-Mubarak

Dr. Syed Baqir Al-Husayni
A member of the teaching staff at the University of Zabul, Iran

الملخص:-

الزهد من العناصر المهمة في الإسلام بشكل عام والتصوف الإسلامي بشكل خاص. تناولت هذه المسألة العديد من المصادر المبكرة والحديثة، وقد نقلت المصادر عنها أقوال وأحاديث وروايات لا حصر لها من الشيوخ والقديسين والأنبياء والمعصومين. إن تعدد هذه الأقوال والروايات وتلاقيها مع عناصر غير عربية وغير إسلامية جعل هذا المفهوم بعيداً بعض الشيء عن معناه الأصلي. ومن الممكن أن يرى العديد من العلماء، وخاصة المستشرقين، أن الحياة النسكية لكبار المتصوفة والعرفان مشتقة من أسلوب حياة غير المسلمين، وخاصة الرهبان المسيحيين. ومن المصادر المهمة للوصول إلى معنى أدق لهذا المفهوم كتب الزهد. حاول المؤلف الاقتراب من معنى الزهد باعتباره حجر الاساس في التصوف الإسلامي والعرفان من خلال فحص أحد أقدم هذه الكتب، وهو كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك (ت ١٨١). الدراسة الحالية هي دراسة وصفية تحليلية. تم جمع المعلومات وتحليلها بطريقة وثائقية. حسب بحث المؤلف ان الزهد يتعلق بالاخلاق. ويمكن القول أن الحياة الزهدية هي نوع من الإحجام عن الاستمتاع بالعالم، عقليًا ونفسيًا، وكذلك من حيث السلوك والشخصية. وبدلاً من الإشارة إلى ضبط النفس من العالم وما فيه، فإنه يتوافق مع الحرمان من الممتلكات والهدايا الدنيوية. وغالبًا ما تكون سلوكية؛ السلوك الذي يتجلى في مفهوم "التقوى". كل هذا يمكن التعرف عليه من مجموعة الكتب التي كتبت في الفترة المبكرة وقبل نشأة الصوفية في فترات لاحقة، تسمى كتب الزهد. ومن أهم هذه الكتب كتاب الزاهد بن المبارك.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، التصوف الإسلامي، الزهد، عبد الله بن المبارك، كتاب الزهد.

Abstract:-

Introduction: Zuhd is one of the important elements of Islam in general and of Islamic Sufism in particular. Dealing with it, most of the classic sources contain many stories and sayings quoted from the saints, prophets and the scholars. Associated with non Arabic and non-Islamic elements, such a plenty of sayings distorted the true meaning of the concept. And so many of scholars and Orientalists in particular argued that what the sufi sheikhs do is the same as the non-Muslims and the Christian monks did in the antiquity. Kutub al-Zuhd are to be thought of the most important sources to reach a precise definition of Zuhd. In order to achieve a clear definition of zuhd as the basis for Sufism and Islamic Mysticism, the author attempted to examine one of the most classical sources, namely, Kitab al-Zuhd ibn Mobarak(d. 181). This is a descriptive-analytical study. Data is collected documentarily and then is analyzed. According to what the author has found, Zuhd refers to the morality. And it can be said that ascetic life style is a kind of detachment to the world materials and possessions, in other words, a Zahid is one who mentally, behaviorally as well as characteristically detached to the world and what belongs to it. Rather than avoiding the world, Zuhd is meant to the independence of it. Mostly it refers to the behavior which is manifested in the concept of chastity or piety("Vara'"). All might be found in the early corpus and sources called Kutub Al-Zuhd, dating back to the pre-sufism period. Most famous of these, belongs to the Ibn-Al-Mubarak called Kitab-Al-Zuhd.

Key words: Islam , Islamic Sufism , Zuhd , Ibn Mubarak , Kitab al-Zuhd.

١. المقدمة:ـ

الزهد من مراجع التصوف والعرفان، وبشكل عام فهو يشير إلى ترك الاهتمام بالعالم والابتعاد عن كل الأمور التي تمنع الإنسان من الالتفات إلى الله. في التصوف، يعتبر الزهد من واجبات اتباع الصوفية والإجراءات الخاصة للمبتدئين. من ليس لديه زهد قوي لن يتم تصحيح شؤونه لأن حب الدنيا هو مصدر كل الأخطاء (أشيان، ٢٠١٦: أسفل المدخل). بالطبع، ليس الغرض من هذا القسم معالجة معنى ومفهوم الزهد على وجه الخصوص، ولكن بسبب سوء الفهم والمفاهيم الخاطئة التي التزم بها كبار العلماء في مجال الصوفية لتعريف هذا المفهوم وشرحه، من الضروري مراجعة هذه التعريفات بإيجاز. تأمل المعنى الحقيقي لهذا المصطلح المهم، والذي يؤثر على جزء مهم من الأخلاق الإسلامية بشكل عام، والممارسة الصوفية بشكل خاص. ومع ذلك، فقد اعتبرت معظم الدراسات حول الزهد هذه الفئة جزءاً من الصوفية الإسلامية واعتبرتها معادلاً للمفهوم العام للزهد. العلماء مثل إجناتس جولدتسيهر (١٩١٠م)، رينولد نيكلسون (١٩٤١م)، لويس ماسينيون (١٩٥٤م)، إلخ، لديهم نفس الرأي تقريبًا. لكن يجب أن يقال إن أياً من معاني الزهد (أي إنكار الذات، التقشف الجسدي، الانضباط الشديد والجوع المرهق، ترك الأسرة والأقارب، إلخ) لا يشير إلى مفهوم الزهد في الإسلام.

في مقالته عن طبيعة الزهد، أكد لي كاينبرغ على أهمية دراسة الزهد في سياقه التاريخي والاجتماعي المحدد، ويقول ((إنه يبدو أنه لا يمكن إجراء مقارنة بين المفاهيم والمصطلحات العربية والأجنبية لأن المصطلح المستخدم قد لا يكون لأحد المجتمعات المستخدمة بالضرورة معنى واضحًا في مجتمع آخر)) (Kinberg, **1985: 24-27**). استخدم الباحث الألماني وعالم الإسلام جوزيف فون س. مصطلح Weltverzichles للإشارة إلى الزهد في العالم واعتبره مجموعة فرعية منفصلة من الزهد، أي التقوى والقبول والثقة (Ess. J. Van, **1961: 105-107**). فهذه المفاهيم الثلاثة، من جهة، كما سنرى لاحقًا في هذا المقال، هي من أهم خصائص الزهد بمعناه العام.

يقول هورويتز، في مقال بعنوان الزهد المعتدل، إن التقشف داخل الأمة الإسلامية اتخذ أشكالًا وفروعًا وأساليب عديدة. في بعض الأحيان يكون هذا التقشف متطرفًا كما نرى في

حالة إبراهيم أدهم (المتوفي ١٦١)، الذي يترك زوجته وأولاده ويعيش كزاهد. أو سهل تستر (ت ٢٨٣) الذي صام مدة طويلة. وأحياناً يكون لهذا التقشف شكل أكثر اعتدالاً، وهو ما حدث على شكل عدم مبالاة بالدنيا وما فيها، ومثاله فاضل عياز وعبد الله بن المبارك.. يعتبر هورويتز هذا التقشف المعتدل نوعًا خاصًا من الأخلاق التي تمثل المظهر الموضوعي والعملي للمثل الإسلامية الأصلية (Hurvitz, **1997: 42**).

الزهد، الزاهد، الحياة الزهدية إلخ، هي من المفاهيم التي نواجهها بشكل متكرر في معظم النصوص الدينية، وخاصة المصادر الإسلامية والصوفية. ومع ذلك، فإن هذا المفهوم، مثل العديد من المفاهيم الدينية والتاريخية، ككلمة وكمصطلح، قد أسيء فهمه. في الوقت نفسه، أصبح هذا المفهوم أسلوبًا للحياة عبر التاريخ، وقد ادعى الكثير عن حق وخطأ الزهد بنوايا دينية وأخلاقية وسياسية وحتى ديماغوجية. من ناحية أخرى، أدى عدم وجود معايير واضحة ومقننة وموضوعية لهذا المفهوم وملحقاته إلى نوع من الالتباس في نوع الإدراك لهذا المصطلح. وبالطبع فإن بعض الناس، بسبب الجهل وعدم المعرفة الصحيحة بحقيقة الزهد، قد فسروا ذلك على أنه زهد مفرط ورهبنة وتقشف شديد، ومن الممكن أن يكونوا في كثير من الحالات قد وصفوه وروجوا له.

يسعى هذا البحث بالاستلهام من طريقة التحليل التاريخي واللغوي للزهد ومصاديقه وتمشيا مع أهداف القرآن والإسلام، إلى تقديم نموذج لتحليل مناهل التصوف الإسلامي لإزالة الغموض والهوامش والتجاوزات التي فُرضت على هذا المفهوم على مر الزمن باسم الزهد والحياة الزهدية؛ لذلك فإن أهم الأسئلة التي يسعى هذا البحث إلى الإجابة عليها هي الكشف عن ماهية وحقيقة الزهد كمفهوم، ومصطلح، والأهم من ذلك، أنه سلوك أخلاقي كان من المفارقات وأنه كان أمرًا للعديد من القادة الدينيين والقديسين العظام. والدراسة الحالية هي دراسة وصفية تحليلية، فقدتم جمع معلوماتها وتحليلها بطريقة وثائقية. وفي هذا التحليل جرت محاولة لتحليل كتاب الزاهد بن المبارك مباشرة كأساس للمناقشة.

٢. الدراسات السابقة

هناك إشارات متناثرة إلى الزهد وتعريفه وأنواعه، فضلًا عن مزايا الزهد الإسلامي على مفاهيم التقشف والرهبنة في الأديان والتقاليد الأخرى، وفي كتب التصوف والعرفان،

وكذلك في تاريخ الصوفية. في اللغة الفارسية، وفقًا لبحث المؤلف، هناك ثلاث مقالات حول مفهوم الزهد:

١) "الزهد والرهبنة في التصوف الإسلامي" بقلم علي أشرف إمامي (المجلة الفصلية للغة الفارسية وآدابها، المجلد ١، ٢٠٠٥)؛ يتناول المؤلف العلاقة بين التصوف الإسلامي والرهبنة المسيحية، وأركانها الأساسية العزلة والتقشف والفقر والسياحة.. ثم يجادل بأن المبدأ الأساسي للرهبنة، أي الانضباط والطاعة، في كل من هذه الأركان الثلاثة هو السمة المميزة للزهد الصوفي عن أشكال الزهد الأخرى.

٢) "تحليل النصوص الزهدية ودراسة العلاقة بين مشايخ الصوفية والإمام كاظم"، لمحمد سوري (المجلة الفصلية للتاريخ الإسلامي، ص ١٤، ٢٠١٣). ويشير المؤلف أثناء تقديمه لكتب الزهد ودرجة دقة الروايات إلى الارتباط بين مشايخ الصوفية والإمام السابع للشيعة.

٣) "العلاقة بين الزهد والحديث في كتاب الزهد لابن المبارك"، بقلم علي مهمان نواز وآخرين (صحيفة موبين، المجلد ٥٩، ٢٠١٦). حاول المؤلف اعادة قراءة التيارات الزهد في عصر ابن مبارك استرجاع اثار كل منهم في روايات كتابه الزاهد. في الوقت نفسه، فإن عنوان المقال بعيد قليلاً عن نية المؤلف. وما يواجهه قارئ المقال القادم، كتب الزهد (منهل التصوف الإسلامي)، هو الاعتراف بحقيقة الزهد من أقوال ابن المبارك في كتابه في الزهد، وهو بحد ذاته الخطوة الأولى في مسيرة الزهد والصوفية. تم الكشف عنها في عصره.

٣. البحث والدراسة

٣-١. كليات البحث

في دخول الزهد في موسوعة الإسلام باللغة الإنجليزية، ((يتجنب ماسينيون أو يمتنع عن لفظ الزهد من الخطيئة، وعن العبث، وعن كل الأفكار التي تبعد الإنسان عن الله، ويتجنب أيضًا كل ما يتعلق بالقلب)) (Massignon, 1913, 1239). يذكر الإسكندر نيش ثلاثة أنواع من الزهد تتجلى في ثلاث شخصيات زهدية، وهم إبراهيم أدهم وابن المبارك وفاضل

عياز. وهذه الاتجاهات الثلاثة، في رأيه، تشكل الأساس أو الخلفية لنفس الزهد الذي أصبح فيما بعد مقدمة للصوفية.. في الوقت نفسه، يرى هذه الخلفية على أنها نوع من الاقتراض ونتيجة لاعتناق الأرمن الإسلام أو حياة المسلمين في المناطق المسيحية. ((يبدو الأمر كما لو أن الزهد الإسلامي هو انعكاس للرهبنة المسيحية (وعلى وجه الخصوص) المسيحية الأرمينية الشرقية. يسمي نيش شخصية تدعى فرقد السبكي، وهو أرمني في الأصل واعتنق الإسلام، نقلاً عن المسيح والتوراة، ويرتدي التقليد الصوفي للرهبان المسيحيين. وفي مكان آخر، يقتبس ابن سيرين (ت ١١٠) الذي يعتبر ارتداء الصوف تقليداً للرهبنة المسيحية)) (Knysh. 2000, 14-22).

أثناء رفض هذه التعريفات أحادية الجانب، يسعى لي كاينبرغ إلى تقديم تعريف حقيقي للزهد الإسلامي. يقدم تعريفين للزهد: التعريف العام والتعريف الخاص. في رأيه، ((التعريفات العامة هي تلك التي تعتبر الزهد هو إنكار أي شيء يبعد المرء عن الله، والزهد يتطلب قمع كل الرغبات الجسدية. عيب هذه التعريفات هو أنها لا تقدم حلاً مناسبًا في هذا الصدد ولا تتجاوز حدود التعميم)) (Kinberg, **1985: 27**). لكن بعض التعريفات تتوافق مع الزهد وتوفر بمعنى ما وصفة للزهد والسلوك الزهد.

وهناك فئتان في حد ذاتهما: تعريفات غاية الزهد، والتعاريف التي توجه الزاهد لتحقيق الهدف (المرجع نفسه). الصنف الأول يشمل الأقوال التي تعرّف الزهد على أنها رضا وتوكل وقصر الأمل. والفئة الثانية هي التعريفات التي تتناول الزهد في العالم.. الرضا يعني رضا الله. يعني رضا قبول أي نوع من المواقف التي تخلق نهجًا خاصًا للحياة في حد ذاتها.. فضيلة الرضا مثال واضح للآية ٢٣ من سورة الحديد التي تقول: لا تفوت ما تخسره ولا تفرح بما يحدث لك. لذلك يجب على كل مسلم يعمل وفق القرآن أن يرضى ويصبر على الصعوبات ولا ينسى أن يشكر الله. لذلك فالرضا من جهة نتاج تعليم القرآن، ومن جهة أخرى يعتبر جزء من الزهد، ولذلك ((فإن الزهد جزء من تعاليم القرآن، ومن يوجهه القرآن ويعمل به فهو زاهد. وهنا الزهد والرضا يلتقيان. من ناحية أخرى، الثقة هي مكمل لرضا وأساس وركيزة الزهد. ويعرف عبد الله بن المبارك الزهد بأنه التوكل على الله وحب الفقر)) (القشيري، ٢٠٠١: ٥٦).

الزهد هو ((الثقة في حقيقة أنك تعتمد على الله أكثر من نفسك، وإذا كنت راضيًا عن البؤس والصعوبة أكثر من الراحة والسهولة، فهذا هو الرضا)) (المكي، ١٩٦١: ٥٤٤/١). وأخيراً قصر الأمل هو (تقصير الرغبة). سفيان ثوري (المتوفى ١٦١) ((يعتبر الزهد في العالم ليس طفح جلدي وبقايا طعام وإنما قصر الأمل)) (القشيري، ٢٠٠١: ٥٦). لقصر الأمل، مثل رضا والتوكل، تأثيرات موضوعية على حياة الإنسان. إن الشخص الذي يمتلك هذه الصفة هو في الواقع من يمتلئ عالمه بالتفكير في الموت والآخرة. كل هذه الصفات الثلاث التي تصنع وتقوي الزهد تؤكد على الحس الباطني ونفي الأبعاد الخارجية للعالم. واستنتاجهم أن الزهد ليس بأي حال مظهراً من مظاهر السلوك الزاهد (مثل الردة والدراويش وأكل الخبز الجاف والانعزال عن المجتمع). ((بالإضافة إلى ذلك، قصر الأمل له استخدامان. أحدهما أنه يخلق العالم الداخلي والباطني للزاهد. والآخر أن أفعاله الخارجية تمنحه الأمر. إلا أن هذه الحالات الثلاث، وهي الرضا والتوكل وقصر الأمل، تشكل جوهر الزهد وهي في الواقع هدف الزهد في الحياة. بالإضافة إلى ذلك، هناك مفهوم رابع يسمى "فارا" وهو في الواقع أسلوب الحياة الذي يستخدمه الزاهد لتحقيق هدفه الأسمى، وهو التفاني الكامل للحب العظيم والصادق لسبحان وتعالي)) (Kinberg, **1985: 27**).

٣-٢. الزهد في القرآن والأحاديث

أن الزهد له جذور قرآنية في الأساس. أن الله القدير في عدة آيات (بما في ذلك الآية ٢٠ من سورة يوسف، ٩٦ نحل، ٢٠ شورى، ٢٠ إلى ٢٣ حديد، ٧٧ نيسا، ٧ كهف، ١٣١ طه) قد أشار إلى ذم ذخارف الدنيا واعتبر ما سوي الله فأنه يفني.. غالباً ما يعتبر المصطلحان القرآنيان "عابد" و "ناسك" معادلين للزهد. ((يشير العابد إلى الذي يقوم بعبادة الله والناسك أيضًا إلى الشخص الذي يؤدي المناسك)) (Genevieve, 1981: 2). ومع ذلك، فإن المكان الوحيد الذي يمكن فيه رؤية كلمة الزهد، هو تعبير (الزاهدين) الآية ٢٠ من سورة يوسف. هنا باع التجار يوسف بثمن زهيد ولم يقدروه. هنا ليس لدينا الوقت لفحص تفسير كل آية تتعلق بالزهد.

ولكن فيما يتعلق بعدم قيمة الممتلكات الدنيوية، يقول الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٣) وقد استنتج المفسرون

من صميم هذه النصيحة الأخلاقية الصريحة، والعقيدة العقائدية واللاهوتية، بمعنى أن عدم الاهتمام بالعالم وعدم الرضا بما يفوت الإنسان متجذر في اعتقاد المؤمن بأن كل الأحداث الجيدة والسيئة هي كلها في القدر الإلهي. إنه مسجل وليس هناك سبب للسعادة والحزن غير الضروريين (الطوسي، ١٩٨٥: ٣٣/٦؛ القرطبي، ١٤٠٥: ٢٣٣/٧؛ الطباطبائي، ١٤١٤: ٥٤/٩).

ينعكس الزهد بشكل كبير في الأحاديث السنية وكذلك مصادر الأحاديث الشيعية، على الرغم من أن بعض هذه الأحاديث مزيفة وغير موثوقة. ومن علامات زيف هذه الأحاديث أنهم استخدموا الزهد ليس بالمعنى الحقيقي بل بمعناه الباطل، أي تجنب تحريم الدنيا. معظم هذه الأحاديث مذكورة في سنن ابن ماجة، وهي أقل موثوقية بين الكتب الستة (أشيان، ٢٠١٦: ٤٥٦/٣). في مصادر الحديث الشيعي، يعتبر رأي الزهد أكثر اعتدالاً. اعتبر الكليني وابن بابوية أن الزهد هو الابتعاد عن المحرمات (الكليني، ١٩٩٤: ٧٠/٥؛ ابن بابوية، ١٣٦١: ٢٥١). بمعنى أن أمير المؤمنين علي عليه السلام يعتبر نموذجاً للزهد في المذهب الشيعي. يعتبر القاضي نعمان أمير المؤمنين عليه السلام أكثر الناس زهداً (النعمان بن محمد، ١٤٠٩: ٤٥). فهو لا يعتبر أن الزهد يسبب نقصاً في ما أمر به الله لعبده، ولا يعتبر أن الجشع يتسبب في زيادة ما أمره الله به (الكليني، ١٩٩٤: ٢/ ١٢٩).

وفي خطبة ١١٣ من نهج البلاغة يقول: ((إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَ إِنْ ضَحِكُوا وَ يَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَ إِنْ فَرِحُوا وَ يَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَ إِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا)) (علي بن أبي طالب، ٢٠١٠: خطبة ١١٣). كلام أمير المؤمنين في خطبة رقم ٢٣٢ من نهج البلاغة قريب جداً من المعنى الحقيقي للزهد. ((كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا؛ عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ وَ بَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ؛ تَقَلَّبُ أَبْدَانِهِمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ وَ يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ، وَ هُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ)) (نفس المرجع: خطبة ٢٣٠.).

في هذا البيان، هناك تجاهل صريح للدنيا، وتذكر الموت يتجلى، ويتم تحديده بالبصيرة، وبشكل عام، فإن الأخلاق العملية، التي هي رأس المال والجوهر، ضمنية. ((إن إضاءة نور الحكمة في قلب المؤمن وتدفق الكلمات الحكيمة على لسانه من آثار الزهد وبركاته، والمؤمن الزاهد هو الذي يحبه الله والخلق)) (الطوسي، ١٤١٤: ٥٣١). بشكل عام، ترك الدنيا،

والرضا، وذكر الموت، وإخفاء الزهد، والابتعاد عن التساؤل والنفاق، وإهمال رفاهيات الدنيا، وقصر الأمل، والامتنان، والصبر، والسعادة من مقومات معظم الأحاديث والروايات.التي تم الاشارة عليها من اقوال الشيعة والسنة.

٣-٣. تصنيف كتب الزهد

أدت الأهمية الدينية والأخلاقية للزهد في الإسلام إلى ظهور العديد من الآثار المتعلقة بهذا المفهوم في مجال الحديث والأخلاق والتصوف والأدب. أقدم هذه الآثار وربما أهمها هو نوع من الآثار التي تعرف بإسم كتب الزهد. وقد تم تحديد ما لا يقل عن سبعة أنواع من هذه الكتب، وآخرها كتاب الزاهد عبد الله بن المبارك الخراساني (ت ١٨١ م). رغم أن فؤاد سزكين يقول إن الطوسي يذكر في قائمته كتاب الزهدي الذي كتبه ثابت بن دينار (١٥٠م)، لكن يبدو أن هذا الكتاب غير موجود، لذا لا يمكن الاعتماد عليه (Salem, 2016, 129).

بداية تأليف كتاب الزاهد يعود إلى القرن الثاني، كتاب الزاهد بن المبارك هو أولهم. يتعامل هذا الكتاب بشكل أساسي مع الزهد الإسلامي (التقوى) وليس ما نعرفه بالزهد بالمعنى الحديث في الديانات الأخرى. يحتوي كتاب الزاهد بن المبارك على أحاديث نبوية وغير نبوية تتناول أداء المجتمع الإسلامي في الفترة السابقة. ما توحي به محتويات الكتاب هو نظرة خاصة إلى التقوى وملكية الثروة تختلف في حد ذاتها عن الممارسات المرتدة الشائعة في المجتمعات الدينية في الشام في القرن الثاني، والتي أصبحت جزء منها فيما بعد الصوفية.

الأثر الثاني في هذا المجال هو كتاب الزاهد لوكيع بن جراح. في هذا الكتاب، يستخدم مصطلح الزهد ليعني التقوى والأخلاق والسلوك الورع، وهناك تركيز خاص على الامتناع عن الدنيا وتذكر الموت. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب يبدأ أساساً بالحديث عن الموت. وذكر الموت أساس الزهد والتقوى في الدنيا. في هذا الكتاب، تدان الدنيا والانتماء إليها، والزهد في الواقع يدل على عدم قيمة الدنيا والامتناع عنها. تتشابه بعض قضايا وكيع الأخلاقية مع قضايا ابن المبارك، وإن تغيرت أحيانًا معاني الزهد في هذا الكتاب لكون معنى هذه الكلمة قد توسعت أكثر في تلك الفترة (أي القرن الثاني). ((إن وجود كلمة "صوف" في هذا الكتاب، بالإضافة إلى الإشارة إلى انتشارها في القرن الثاني، يؤكد على وجه التحديد الارتباط الهادف والمهم بين هذه الكتب والتقليد الصوفي)) (بن جراح، ١٩٨٤: ٨٩).

كتاب الزهد معافة ابن عمران الموصلي (ت ١٨٥ م) وهو كتاب آخر من كتب الزهد من القرن الثاني. مؤلف هذا الكتاب معافة من الزهاد البارزين وأحد تلاميذ سفيان ثوري. وقد أطلق عليه ابن حجر العسقلاني "عباد المتقشفين في الزاهد" والمراد هنا الزهد الإمساك عن الدنيا (العسقلاني، ٢٠٠٤: ٢٠٠/١٠). يبدأ معافة كتابه بفصل عن القناعة. ثم يتحدث عن تجنب النساء والأطفال. وفي هذا البيان يبدو أنه يشير إلى الآية الكريمة التي تقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾. يمكن ملاحظة أن العلمانية في هذا الكتاب هي أكثر بكثير من العملين السابقين (الكهف: ٤٦).

أسد بن موسى بن إبراهيم بن عبد الملك الأموي (ت ٢١٢) له أيضًا نهج خاص لهذا المفهوم في كتابه الزاهد. وقد اقتبس في كتابه أكثر من مائة حديث غير نبوي، وترتبط محتويات الكتاب عمومًا بالعقاب الإلهي ويوم الدين (يوم القيامة). هذا الكتاب هو الأكثر صرامة مقارنة بالكتب المذكورة أعلاه. ويتحدث عن عذاب أهل جهنم والزقوم وكذلك القصاص. ((وإن كان تفسير أسد بن موسى للزهد في هذا الكتاب هو نفسه التقوى، إلا أنه يبدو أن هذا التقوى متجذر في الخوف والرجاء والتقوى الإلهية. يستخدم المؤلف مخافة الله باستمرار كأداة لتقليل الخطيئة والخطأ)) (ابن المبارك، ٢٠٠٤: ٣٦).

الكتاب الخامس هو كتاب الزاهد هناد ابن السري (ت ١٥٢). وهذا الكتاب خلافا لكتاب الزاهد الأسد بن موسى الذي أكد باستمرار عذاب وعذاب النار ويوم الدين والقيامة، يتحدث عن الجنة والثواب والبركة في الآخرة. الثواب والبركة بإنتظار من يمارس التقوى في الدنيا. يبدأ الكتاب بوصف مفصل للجنة ثم يتحدث عن مشروبات وأطعمة الجنة والحوريات والأنهار وحمضيات الجنة وكذلك مراتب ودرجات أهل الجنة. بعد ذلك، في أسلوب وسياق كتاب الزاهد لابن المبارك، تناول الزهد والتقوى، والأخلاق كالتواضع والورع والتكبر والصمت والرياء والحسد. ١١٦ فصلاً من الكتاب مليئة بالأحاديث والروايات التي نقلها المؤلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه.

أحمد بن حنبل (ت ٢٤١) هو أيضًا أحد مؤلفي كتب الزهد. وهو من تلاميذ الإمام الشافعي ومؤسس المذهب الحنبلي. يختلف أسلوب وسياق كتابة ابن حنبل في كتابه عن الزهد عن غيره. يتشابه نمط الكتابة مع كتب الطبقات ويؤخذ الترتيب الزمني والتاريخي في

الاعتبار عند الكتابة. تحدث ابن حنبل في كتابه عن طريقة زهد الأنبياء الأوائل وأصحابهم من زمن آدم إلى خاتم (وبالطبع العظماء حتى زمانه). ((يتعامل أولاً مع الأحاديث المتعلقة بالنبي في هذا الصدد ثم يذهب إلى آدم ويتعامل أخيراً مع أصحاب رسول الله في الفصل الأخير. وبالطبع، فإن معظم الأحاديث التي نراها في هذا الكتاب ليست نبوية، وقد لا توجد أحاديث مماثلة في كتب الحديث الأخرى. أصبحت هذه الأحاديث أحيانًا أساس الزهد في فترات لاحقة. الشيء المهم الذي يجب ملاحظته حول هذا الكتاب هو أن معظم الروايات في هذا الكتاب تستند إلى مصادر يهودية ومسيحية (إسرائيلية). وبالنظر إلى تأثير هذا الكتاب على مجال الزهد، يمكن طرح السؤال إلى أي مدى كانت الأحاديث في هذا الكتاب، وطبعًا في كتب الزهد التي أثرت فيه، على الرهبنة المسيحية وأواخر العصور القديمة)) (بن جراح، ١٩٨٤: ٩٣).

وأخيراً كتاب الزهد للبيهقي (ت ٣٨٤). من أهم مزايا هذا الكتاب العلاقة الواضحة التي أقامها بين الزهد والتصوف. يفسر البيهقي الزهد، وليس التقشف، على أنه نوع من التقوى الإسلامية، ويستخدم على وجه التحديد مصطلح التصوف، موضحًا أن الكلمة تأتي من "الصفا"، مما يدل على حالة القلب الصوفي. ما تبقى من كتاب الزاهد البيهقي أبواب تشير إلى جوانب مختلفة من الزهد، كل منها مبني على حديث أو قول من زاهد مشهور سابق.

بشكل عام، يوضح محتوى هذه الكتب أن ((الزهد لا يقتصر فقط على التقشف والمشقة كما نرى في سنن أخرى. بل هو نوع من التقوى الإسلامية؛ أي: الامتناع عن كل ما يبعد الإنسان عن الله. إن إلقاء نظرة فاحصة على مثل هذه الكتب يدحض الفرضية القائلة بأن الزاهدون الأوائل والصوفيون الحقيقيون للإسلام قد تأثروا بالسنن والأديان والمدارس غير الإسلامية (السنن غير الإسلامية، بما في ذلك السنن المسيحية السائدة في سوريا في ذلك الوقت).. من ناحية أخرى، فإن تصور المسلمين للزهد والتقوى والروحانية ورجال الدين يشير إلى الإشارات القرآنية إلى فضائل الزهد، التي جعل القرآن نفسه من النبي ﷺ أسوة حسنة. بالإضافة إلى ذلك، تشكل هذه الكتب في حد ذاتها مجموعة أثرت من الناحية الهيكلية ومن حيث المحتوى على المجال الذي ظهر فيما بعد على أنه تصوف وأصبح منظمًا بشكل تدريجي منذ القرن الثاني فصاعداً. فيما بعد، طورت الأساليب الصوفية، من خلال

نفس المادة الزهدية لمثل هذه الكتب، طرقًا مختلفة لتحقيق الأهداف التي حددها كل منهم لأنفسهم)) (نفس المرجع: ٩٦).

إن وجود الميول المتشابهة والمشتركة بين أساليب الصوفية وحاضرها بشكل عام دفع العديد من العلماء والمستشرقين إلى استخلاص استنتاجات غامضة وصعبة. في غضون ذلك، يجب التمييز بين الأساليب والتصوف. ((يجب فهم الصوفية على أنها روحانية إسلامية ونوع من الفضيلة الأخلاقية في الإسلام، والاساليب في الواقع هي الطرق التي تسعى المجتمعات الإسلامية من خلالها إلى تحقيق مُثل التصوف. حسنًا، بالطبع، يختلف هذا الإدراك وفقًا لنوع المجتمعات التي تشكلت فيها الطرق أو ترتبط بها. لذلك، فإن التمييز بين الصوفية والأسلوب هو مفتاح فهم الصوفية على أنها تقوى ونسك إسلامي، وهو أمر متجذر في كتب الزهد هذه. محتوى هذه الكتب هو في حد ذاته أساس كتابة المصادر، ومن بينها ما يمكن أن نذكر فيه أطروحة القشرية وإحياء الغزالي)) (Salem, 2016: 129). وبالطبع، فإن دراسة هذه المسألة المهمة، أي تأثير المصادر الصوفية، التي كُتبت تحديدًا منذ القرن الثالث وما بعده، وتحت تأثير كتب الزهد، تتطلب وقتًا.

٣-٤. عبد الله بن المبارك وموقفه في المصادر المبكرة

عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن المورزي مولى بني حنظلة ولد عام ١١٨ هـ في أسرة تركية في ميرف. وينقل الخطيب البغدادي عن المبارك قوله: ((أتذكر عندما كنت صغيراً، وعندما انتفض أبو مسلم، كنا نرتدي السواد. في الواقع، أمر أبو مسلم الجميع، صغارًا وكبارًا، بارتداء السواد)) (الخطيب البغدادي، ١٩٣١: ١٥٤/١٠). يدل هذا الاقتباس على أن ابن المبارك عاش في خراسان خلال الانتفاضة العباسية بقيادة أبو مسلم وشهد إسقاط الأمويين. ((يترك المبارك ميرف في سن العشرين ويسافر إلى أماكن مختلفة بحثًا عن العلم والمعرفة. يسمي الذهبي ابن المبارك "السفار" لأنه قام برحلات عديدة إلى دول مثل اليمن ومصر والشام والجزيرة العربية والبصرة والكوفة)) (الذهبي، ١٩٩٨: ٢٧٥/١).

كانت رحلات المبارك الرئيسية إلى هذه المناطق هي جمع الأحاديث والروايات. وينقل ابن العساكر عن أحمد بن حنبل قوله: ((في زمن ابن المبارك لم يسافر أحد بقدره في طلب العلم، سافر إلى اليمن ومصر والشام والبصرة والكوفة ونال العلم والنعمة من الناس.

استمع وسجل أحاديث من كبار وصغار، بما في ذلك عبد الرحمن بن مهدي، من أساتذة ابن المبارك وطلابه وأتباع الصوفي والزاهد المشهورين سفيان الثوري، وإبراهيم محمد حارث الفضاري)) (ابن العساكر، ١٩٩٥: ٤٠٧/٣٢).

كان ابن المبارك في زمانه عالمًا في الحديث، وعاملا للزهد والجهاد. ((كما سماه بعض علماء الحديث أمير المؤمنين بالإجماع لقدرته على الحديث، ومنهم من يسميه حافظ. وقد منحه الذهبي لقب الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام)) (الذهبي، ١٩٩٨: ٢٧٤/١). وفي مكان آخر يسميه الذهبي قدوة الزاهدين وإمامهم (نفس المرجع: ٢٠٢/١). لكن شهرة هذه الشخصية ومكانتها وأهميتها لا تقتصر على جهوده في تأليف الحديث وثقته في رواية الحديث. ((أن حياة ابن المبارك ناظرة إلى الإدراك الموضوعي للأبعاد والجوانب المختلفة للنصوص الإسلامية بمعنى أن العديد من نصوص الأحاديث تنظر إلى الجهاد والزهد والحديث على المستوى النظري، لكن سيرة ابن المبارك تظهر نموذجًا عمليًا للشخصية التي تضع معظم هذه القضايا النظرية موضع التنفيذ. بمعنى أن ابن المبارك مجتهد وزاهد، وناسك ومحدث عامل، كما أطلق عليه صاحب الطبقات العظيمة "سلطان العباد وأهل الزهد)) (الشعراني، ١٨٩٧: ٥٢/١).

لذلك، يمكن اعتباره شخصًا صنع التاريخ والهوية في هذه المجالات الثلاثة من العلوم والممارسات الإسلامية. لذلك، يمكن اعتباره شخصًا صنع التاريخ والهوية في هذه المجالات الثلاثة من العلوم والممارسات الإسلامية. من ناحية أخرى، عاش ابن المبارك في بداية تشكيل التاريخ الإسلامي، أي عندما شهد الحديث الإسلامي والفقه والزهد المراحل الأولى من التطور.

تتجلى جوانب عديدة من هذا التكوين في أوصاف ابن المبارك، وهذه الأوصاف تزيد من معرفتنا بالعوامل المؤثرة في تكوين الهوية الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك، روى ابن المبارك الحديث عن رواة مشهورين وسافر كثيرًا لجمع الأحاديث، وكانت جهوده في جمع مصادر الحديث والكتب من بعده فعالة جداً. ولهذا تعتبر كتبه ومنها كتاب الزهد وكتاب الجهاد مراجع في هذا الصدد. كان تعريفه للزهد هو الأساس الرئيسي لمعظم آراء الشخصيات الصوفية البارزة في فترات لاحقة. إن طريقته في الزهد، والتي تشير غالبًا إلى

إحجام العالم بدلاً من التخلي عن الروح الدنيوية، هي ممارسة يقبلها أيضًا العديد من الرواة. الزهد أو التقوى عامل مهم في تحديد درجة مصداقية الراوي أو عدالته. وأخيراً هناك اقتباسات من ابن المبارك في مدح سفيان الثوري. كما نقل عن عبد الرحمن بن مهدي قوله: ((في الحديث أربعة أئمة هم سفيان الثوري ومالك بن أنس وحماد بن زيد وابن المبارك)) (المزي ١٩٨٠: ١٦/١٤).

٣-٥. الزهد من وجهة نظر ابن المبارك

قبل أن نفكر في الزهد من وجهة نظر هذا الشخص، يجب أن نقول إنه كان شخصًا ثريًا ومتمكنا. ((على عكس القديسين والزاهدين في عصره، الذين عاشوا في التقشف، كان رجل أعمال ناجحًا أدى كثيراً من مناسك الحج، وسافر إلى أماكن مختلفة، بما في ذلك مصر واليمن والشامات. يُروى أنه في الحج الأخير نظم مأدبة عشاء وقدم لضيوفه ٢٥ صينية من الفالوذج، نوع من الحلوى)) (الخطيب البغدادي، ١٩٣١: ١٥٨/١٠).

بالطبع لا بد من توفير تكلفة هذه الإسراف والعديد من الرحلات من مكان ما. وهذا يدل على أن زهد المبارك لم يكن معناه التقشف وعدم وجود ممتلكات دنيوية. يظهر أسلوب حياته أنه لا يرى تناقضًا بين الزهد والملذات الدنيوية. ((فمن ناحية، كان يصوم نفسه أحيانًا ولكنه يشجع الآخرين على الأكل ويمدهم بالطعام، مما يعني أنه من وجهة نظره، فإن الزهد يعني أن الطعام والشراب لم يدينهما. من ناحية أخرى، لم يكن المبارك منعزلاً، فقد كان يأكل الطعام في الجماعة، وكان الإطعام الجماعي من سننه. نقل ابن عساكر عن حسن بن ربيع قوله إنه ذات يوم رافقه في رحلة من مريف إلى بغداد ولم ير المبارك يأكل وحده، بل جمع القراء والرواة وجلس معهم)) (ابن العساكر، ١٩٩٥: ٥١٤/١١).

وقد جاء في أطروحة القشيرية أن ((ابن المبارك سئل عن معنى الزهد. فأجاب الزهد توكل على الله وحب الفقر)) (القشيري، ٢٠٠١: ٦١). وهناك اقتباس آخر من فاضل عياز الذي سأل ابن المبارك: نصحتنا بالزهد والقليل، ولكنك تعيش مع اموالك، فكيف يكون هذا؟ يجيب: يا أبا علي! أفعل هذا من أجل الحفاظ على شرفي (لاصون وجهي)، والحفاظ على كرامتي (لأكرم عرضي) ومعها أقوم بعبادة الله سبحان وتعالي بطريقة. يقول فاضل: ((يا ابن المبارك ما السعادة إذا كانت هذه هي الحال)) (الذهبي، ١٩٩٨: ٣٨٧/٨).

هناك عدة نقاط في هذا الحديث تظهر وجهة نظر ابن المبارك في الزهد. أولاً، يرى الزهد كنوع من التفكر وموقف تجاه الدنيا، وليس مجرد امتلاك الثروة أو عدم امتلاكها. في الواقع، وفقًا لابن المبارك، يجب على الإنسان أن يعيش في العالم ويستمتع به، لكن لا يجب أن يكون دنيويًا أو معتمداً عليها. بعبارة أخرى، الزهد الحقيقي، حسب وجهة نظر عبد الله بن المبارك، هو حب الفقر، أو الامتناع عن الدنيا، وإن كان المرء غنيًا وسعيدا مع الآخرين، لكنه أيضًا في الوقت نفسه زاهد. من المهم أن يكون القلب لا يميل إلى الدنيا.

إن التركيز على عدم ميل القلب أو عدم الرغبة الباطنية للدنيا واضح في كتابه الزهد. وهذه هي النقطة التي أصبحت فعالاً فيما بعد في تجميع العلوم الباطنية وطورت فرعًا يسمى التصوف. نقطة أخرى هي أن المبارك أقام علاقة مثيرة للاهتمام بين القدرة المالية واحترام الذات. يقول المبارك إن الثروة تسمح له بالمحافظة على شرفه وكرامته، بما يمنحه احترام الذات ولا يسمح له بحاجه إلى صدقات الآخرين.

هذا الرأي له جانبان: من ناحية، فإنه يدعو إلى التشكيك في زهد بعض المتقشفين وبعض الزهاد، ومن ناحية أخرى، يعتبر الجهد والعمل نهجًا مناسبًا في ممارسة الزهد. النقطة الثالثة هي استخدام المال في عبادة الله سبحان وتعالي. يستخدم مصطلح "عون" ويعتقد أنه عندما يصبح الإنسان مستقلاً ماديًا ومكتفيًا ذاتيًا، فإنه يكتسب الثقة بالنفس، ويتحرر من القلق، ويستطيع ان يقوم بتكوين عائلته، ويعبد الله بحرية، ولا يلجأ إلى الله خوفا من الفقر. امتلاك المال والاموال هو نوع من راحة البال التي تسبب التركيز على العبادة. يتجلى هذا النوع من المواقف في سلوك ابن المبارك: فقد سافر لجمع الحديث، وأدى فريضة الحج عدة مرات، بالإضافة إلى الصدقات والاعمال الخيرية، وكل هذا يتطلب نفقات ومصاريف ضخمة. بالإضافة إلى ذلك، لا ينبغي التقليل من تكلفة الحبر والقلم والورق التي تم إنفاقها على تسجيل الأحاديث وكتابتها.

لذلك فإن الزهد من وجهة نظر المبارك لا يعني ترك ملذات الدنيا، بل هو نوع من التواضع والخضوع والطاعة، أي التقوى. كان لابن المبارك شيئًا واحدًا مشتركًا مع الزهاد الآخرين، وهو تجنب الشهرة. ونقل عنه ابن الجوزي قوله: إن الالتفات إلى الزهد هو في حد ذاته زهد أو إنكار للزهد. يقول هومو إن حسن موروزي نقل عن المبارك قوله إنه يجب أن

تحب إخفاء الهوية وتجنب الشهرة. لا تدع الآخرين يعرفون أنك تحب عدم الكشف عن هويتك، لأن هذا سيرفع من ذاتك وشأنك. واهتمامك بالزهد هو نوع من التخلي عن الزهد لأنك تريد الثناء والمدح بك (ابن الجوزي، ١٩٧٢: ١٢٣/٤).

٣-٦. كتاب الزهد لابن المبارك

بشكل عام يمكن القول إن كتاب الزهد بن المبارك هو كتاب عمل وأخلاق أكثر من كتاب ضبط النفس والابتعاد عن الدنيا. تم تحرير هذا الكتاب ونشره لأول مرة عام ١٩٦٦م في الهند بواسطة حبيب الرحمن الأعظمي. يحتوي النص المنشور على حوالي ١٦٢٧م حديثاً روى معظمها أحد أتباع ابن المبارك اسمه حسين بن حسن المروزي. وتجدر الإشارة إلى أنه نظرًا لعدم وصول المؤلف إلى هذا الكتاب، غالبًا ما يتم أخذ محتويات هذا القسم من المقال الحالي من كتاب ((ظهور التقوى الصوفية المبكرة والمدرسة السنية))، والذي يقدم تفسيراً جيداً نسبياً لكتاب زهد بن المبارك. بغض النظر عن التفاصيل، يحتوي هذا الكتاب هيكليًا على عدة مواضيع. التي سنتعامل معها في هذا القسم.

لكن هذا الكتاب، خلافا لغيره من كتب الزهد، مثل كتاب الزهد لابن حنبل، الذي يدخل فيه عنصر التوقيت، يصف مختلف أشكال الزهد وينصح القارئ بممارسة الأعمال الواردة في هذه الأحاديث. لهذا السبب، ليس لهذا الكتاب تاريخ انتهاء محدد وتوصياته عامة وعملية

إن جنس الكلمة في هذا العمل هو الزهد في الدنيا. لذلك، فإن الفهم الدقيق لوجهة نظر ابن المبارك في الزهد يتطلب التعامل مع الأقسام التي يتم فيها تناول القضايا المتعلقة برؤيته للعالم المادي والأموال على وجه التحديد. لأن، هو لا يعتبر الزهد نقصًا في الممتلكات الدنيوية، بل يعتبره إهمالًا للرفاهية الدنيوية وعدم الرغبة الداخلية والقلبية في ذلك. وفي حديث رواه ابن مسعود تضمن هذا الأمر. وفي هذا الحديث خاطب مسلمي ذلك اليوم بأنكم جهاد، وأنكم تصليون، وعدد ركعات صلاتكم أكثر من أصحاب النبي ﷺ، لكنهم كانوا أفضل منكم.

ولما سُئل عن سبب ذلك أجاب أن زهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة أعظم منكم.

نعم، في أي مجموعة من الأحاديث، نوع رأي الراوي والأهم من ذلك صدق الجامع للأحاديث هو الشرط الأصلي والأساسي في مصداقية عمله في هذا الأمر المهم.

خصص ابن المبارك فصلاً كاملاً من الكتاب إلى مناقشة الإخلاص في طلب العلم. يستشهد بحديث عن أبي ذر يقول: ((من جمع الحديث ورواه بغير نية أو مرض، أقامه الله له الملك. ويرجع رواية هذا الحديث إلى أن بعض الناس في ذلك الوقت سعوا إلى رواية الحديث (وربما اختلاق الحديث) بدوافع مادية وثروة وشهرة. الجمع بين العلم والعمل هو موضوع آخر من قضايا الإخلاص. وينقل ابن المبارك عن أبي الدرداء قوله: إن أسوأ الناس يوم القيامة هم العلماء الذين لا ينتفع الآخرون بعلمهم)) (ابن المبارك، ٢٠٠٤: ٩٤). هذا علم لا يرافقه العمل.

هذه مسألة أخلاقية. وفي هذا الصدد يستشهد ابن المبارك بحديث آخر عن فقيه ذلك الزمان المشهور ابن عمرو بن الشابي قال: أهل الجنة موجهون لأهل النار، فلماذا ذهبتم إلى النار؟ يجيبون: أمرنا الآخرين بالمعروف ونحن لم نفعل ذلك. هذا الحديث يدل على نوع من النفاق والرياء لبعض علماء الحديث في ذلك الوقت الذين لم يكونوا عملاء لعلمهم. لذلك، فإن طهارة القلب هي الشرط الأساسي لطلب العلم، يليه العمل.

والنقطة المهمة التي يتبعها ابن المبارك من ذكر هذه الأحاديث هي أنه كما أن المال والممتلكات مكروهة بهدف كسب المال الاكثر، كذلك العلم إذا لم يفيد الآخرين ولم يكن العالم يستفيد من علمه في العمل، فهذا العلم يكون سبب سقوط العالم وهذا هو مبدأ الأخلاق الزهدية التي يجب مراعاتها على جبهتي العلم والثروة. علاوة على ذلك، يبدأ كتاب الزهد لابن المبارك بالتحديد بحديث عن قيمة الوقت (العمر). إنه يعتقد أن هناك شيئين واضحين جداً للناس: أحدهما الوقت (العمر) والآخر الصحة. ثم يستشهد بحديث شهير يقول: لا تهمل خمسة أشياء: الشباب حتى تشيخ؛ الصحة قبل السقم؛ التمكين قبل أن تقع في الفقر والبؤس؛ الفراغ قبل الانشغال؛ والحياة قبل الموت.

بعد أن تحدث ابن المبارك عن أهمية الحياة، انتقل إلى أحاديث الموت، ففي حديث عن رسول الله ﷺ عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ((عش في الدنيا كأنك غريب أو

مسافر وتعتاد على زيارة القبور)) (ابن المبارك، ٢٠٠٤: ٨٣). تكمن أهمية هذا الحديث في أنه يعكس وجهة نظر ابن المبارك في الزهد: كونك مسافراً أو غريبًا لا يعني عدم الاستفادة من الممتلكات الدنيوية، بل يعني عدم الانتباه وعدم الرغبة الداخلية أو الاعتماد على ثروات وممتلكات الدنيا. نؤكد أن زهد ابن المبارك هنا هو نوع من الحالة القلبية والعقلية التي يمكن أن يتمتع بها حتى الشخص الثري والميسور، وليس أن الزهد معناه تقشف في أطار خاص مثل ما هو اليوم و طبعا أمس نراه في سنن أخرى.

بالإضافة إلى ذلك، هناك جانب آخر يعتبره ابن المبارك للزهد في كتابه وهو مناقشة عدم التنافس على الممتلكات الدنيوية ومجموعاتها. في حديث يبدو أنه في صحيح مسلم، يقتبس: ((أنا لست خائفًا من الفقر عليكم، لكني أخشى أن تتنافسوا على زخارف الدنيا وكما فعل أسلافكم وهلكوا)) (نفس المرجع: ٢٨٨). إلا أن زيارة القبور، التي وردت في الحديث السابق، يقوي هذا الزهد في حد ذاته كحالة نفسية وروحية، لأن الزاهد الحقيقي أيضًا له لمحة عن الموت والآخرة.

من أهم مظاهر الزهد في الإسلام قضية الخوف والأمل. في كتابه، استخدم ابن المبارك عناصر مثل العقاب الإلهي والعذاب والحساب والآخرة لإثارة الخوف لدى الانسان المسلم من جهة، وعناصر مثل النعمة الإلهية والرحمة لخلق الأمل في عباد الله من جهة. بالطبع، خلق الخوف هذا ليس بالقدر الذي يمنع الانسان من التصرف، وفي نفس الوقت لا يقوي من إهماله وضعفه، ولكن الغرض منه هو خلق تحذير من تقييد الحياة لفعل الأعمال الصالحة حتى هذا العمل يشفع للإنسان في الحياة الآخرة وينقذه من نار جهنم.

وعموماً يمكن القول إن نص كتاب الزهد لابن المبارك يشير إلى الأخلاق الورعة، وقد أصبحت هذه الأخلاق أساس الكتب الصوفية من بعده ومنها أطروحة القشيرية. ((يتناول ابن المبارك على وجه التحديد عناصر الزهد الإسلامي الهامة مثل التواضع، والخوف والأمل، والرصانة، والحفاظ على اللغة، والثقة، والتقوى، والرياء والنفاق، والرضا، والجشع، وكذلك الصدقة، وتوفير أمتعة الآخرة، والصحبة الحسنة ويذكر أحاديث عديدة لكل منهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة، والتابعين)) (Salem, 2016: 129).

النتائج:

إن ما نعرفه اليوم في الكتب والمصادر الصوفية بالزهد كمرحلة أولى من السلوك الصوفي يستند إلى تنظيم القاعدة ويعتمد على محتويات مجموعة من الكتب التي كتبها بعض الرواة النشطاء قبل القرن الثاني. ونعرفها بـ "كتب الزهد". على عكس ما يميل البعض اليوم إلى اعتباره معادلاً للزهد في خطاب الدراسات الصوفية الشائعة بين المستشرقين، فإن الزهد ليس مدرسة خاصة لها قيادة محددة وآلية محددة، ولا أسلوب حياة محدد حتى نبحث عن منشئها. بل الزهد هو في الأساس نوع من الحياة الأخلاقية. يمكن لكل شخص أن يكون زاهدًا ويعيش بالزهد، بشرط أن يكون داخليًا، معنويًا وروحانيًا ونفسيًا تاركا للذات الدنيا، وهذا الامتناع عن الدنيا، بالطبع، لا يعني قلة العمل، أو عدم التمتع والتلذذ من هذه الهبات والبركات سبحان وتعالي في الدنيا، بل هو الاستقناء من الممتلكات الدنيوية وتكديس الثروة وتجنب المنافسة غير المجدية على الملكية، والتي يمكن أن تكون رمزًا للجشع البغيض. إن كتب الزهد، وخاصة كتاب الزهد لابن المبارك، الذي نوقش في هذا المقال، هو في الغالب مدونة أخلاقية وتربوية تتناول الزهد في الدنيا. بشكل عام، يمكن القول أن الزهد هو أكثر من مجرد مفهوم نظري، إنه تصنيف عملي ويلاحظ الطريقة العامة للسلوك التي تظهر نفسها في أخلاق الفرد وشخصيته. في هذه الأثناء الزاهد هو الشخص الذي له علاقة ثنائية الاتجاه مع الناس، وميزته الوحيدة عليهم هي بعض الصفات والقيم الأخلاقية التي حددتها المصادر السابقة المتعلقة بالزهد، أي كتب الزهد. هذه الصفات، بما في ذلك رضا، والثقة، وتقصير الآمال، وتجنب الرياء والنفاق، وما إلى ذلك، كلها مدمجة في مفهوم يسمى التقوى. التقوى هي في الأساس مفهوم اجتماعي يتضمن تعليمات حول كيفية التصرف والسلوك في مواقف مختلفة من الحياة اليومية وفي النهاية يتجلى الزهد في الزاهد.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

- ابن الجوزي، أبوالفرج (١٩٧٢م). صفوة الصفاء. ط٢. حيدرآباد: دائرة المعارف العثمانية.
- ابن العساكر، علي بن حسن (١٩٩٥م). تاريخ مدينة دمشق. تصحيح: محب الدين ابي سعيد. ط١. دار الفكر: بيروت.
- ابن المبارك، عبدالله (٢٠٠٤م). كتاب الزهد. تصحيح: أحمد فريد. ط٢. القاهرة: دار المنهل.
- ابن بابوية، صدوق (١٩٨٢م). معاني الأخبار. التحقيق: علي أكبر الغفاري. ط٢. قم: الطبع الجلالي.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد (١٩٨٤م). كتاب الزهد. ط٢. الإسكندرية: دار الفكر الجامعي.
- أشيان، الزهراء (٢٠١٦م). الزهد: موسوعة العالم الإسلامي. ط٢. طهران: مؤسسة الموسوعة الإسلامية.
- بن جراح، وكيع (١٩٨٤م). الزهد. تصحيح: عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي. ط٢. المدينة المنورة: مكتبة الدار.
- الخطيب البغدادي، أبوبكر ١٩٣١، تاريخ بغداد او مدينة السلام، تصحيح محمد امين الخنجي مكتبة الخنجي، قاهرة.
- الذهبي، محمد بن أحمد (١٩٩٨م). تذكرة الحفاظ. تصحيح: زكريا عميرة. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الذهبي، محمد بن أحمد (٢٠٠٤م). سير الأعلام النبلاء. تصحيح: مصطفى عبدالقادر عطا. ط٣. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الشعراني، عبدالوهاب (١٨٩٧م). الطبقات الكبري. ط٢. القاهرة: مكتبة محمد المليجي.
- الطباطبايي، محمد حسين (١٤١٤ق). الميزان في تفسير القرآن. قم: دار الهدي.
- الطوسي، محمد بن حسن (١٤١٤ق). الأمالي. ط٢. قم: دار الهدي.
- الطوسي، محمدبن حسن (١٩٨٥م). التبيان في تفسير القرآن. تحقيق: أحمد بن حبيب قصير العاملي. ط٢. بيروت: دار الكتب.

- العسقلاني، ابن حجر (٢٠٠٤م). تهذيب التهذيب في أسماء الرجال. تصحيح: عادل أحمد موجود. ط٣. بيروت: دار الكتب العلمية.
- علي بن أبي طالب (٢٠١٠م). نهج البلاغة. ترجمة: شهيدي، سيد جعفر. ط٢. طهران: منشورات علمية وثقافية.
- القرطبي، محمد بن أحمد (١٤٠٥ق). الجامع لأحكام القرآن. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.
- القشيري، ابوالقاسم (٢٠٠١م). رسالة قشيرية في علم التصوف. ط٣. بيروت: دارالكتب العربي.
- الكليني، محمد بن يعقوب (١٩٩٤م). أصول الكافي. ط٣. بيروت: دار الكتب.
- المزّي، يوسف بن زكي (١٩٨٠م). تهذيب الكمال في أسماء الرجال. تصحيح: بشار عوّد معروف. ط٢. بيروت: موسسة الرسالة.
- المكي، أبوطالب (١٩٦١م). قوت القلوب. ط٢. القاهرة: دار العلم.
- النعمان بن محمد، قاضي (١٤٠٩م). شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار. ط٢. قم: الطبع الجلالي.

- Ess. J. Van, (1961). **Die Gedankenwell des Harit al-Muhasibi** (Bonn: Rheingold Druckerei, Mainz).
- Genevieve. Gobillot (1981). **Zuhd**, Encyclopedia of Islam. S.v.
- Hurvitz. Nimrod, (1997). **Biographies and Mild Asceticism: A study of Islamic Moral Imagination**, Studia Islamica. 85.
- Kinberg. Leah, (1985). **what is meant by Zuhd**, Studia Islamica, 61.
- Knysh. Alexander, (2000). **Islamic Mysticism: A short story**, Leiden, Brill.
- Massignon, Louis, (1913). **Zuhd, Encyclopedia of Islam**(Leiden: Brill; London, vol 4.
- Salem. Feryal, (2016). **The Emergence of Early Sufi Piety and Sunnī Scholasticism**, Brill, Leiden.